مجلة العلوم الإنسانية — المجلد 33 – عدد 2-جوان 2022، ص.ص. 153-164

تمظهرات صورة أطفال الحرب في شعر قاسم سعودي "ديوان الصعود على ظهر أبي أنموذجا"

The child of war in the poem of Qassem Saudi Case Study diwan "Al-Saud Ala zahre Abi"

تاريخ الاستلام : 2020/08/16 ؛ تاريخ القبول : 2022/05/08

[1] فاطمه بوعذار
[2] * د. علی خضری

1 طالبة دكتوراه بجامعة خليج فارس، بوشهر، ايران.

2 أستاذ مشارك بجامعة خليج فارس، بوشهر، ايران.

ملخص

إن للطفل في القصيدة العربية المعاصرة حضورا مكثفا بوصفه محورا رئيسا من محاور التركيبة المجتمعية. وقد اعتنى الشعراء بقضية الطفل في أشعارهم لما لموضوع الطفل من جماليات فنية وأبعاد رؤيوية وغناء إبداعي كما أنهم صوروا معاناة الأطفال في ظل الحروب التي عبثت ببراءتهم وتركت أثارا سلبية على نفسيتهم وحياتهم المستقبلية. ومن بين هؤلاء الشعراء قاسم سعودي الشاعر العراقي الذي كتب عن معاناة الأطفال ومأساتهم في ظل الحروب التي خاضها العراق في العقود الأخيرة. لذا أصبحت قضية الطفل شغله الشاغل والفكرة الأساسية التي كرّس جهوده من أجلها.

قام هذا البحث على المنهج الوصفي_ التحليلي لشرح صورة طفل الحرب في أشعار قاسم سعودي الذي استطاع بها أن يترك بصمته الأدبية وأن يصور بصورة واقعية ما تعرض له أطفال في وطنه من فقد للأهل ودمار الأرض والوطن وأحداث دامية ومجازر وحشية. ومن النتائج التي توصل إليها البحث هو أن اليتم والفقد خاصة فقدان الأب والمعيل جعل الطفل يعيش حالة الفقر فأصبح يحمل عبء الحياة وحيدا على كاهله ما أدى إلى عمالته في الشوارع بغية الحصول على لقمة العيش كما أن الأطفال وبسبب قضية الوطن أجبروا على التجنيد الإجباري فكان مصيرهم خوض الحروب والإرتقاء إلى درجة الشهادة.

الكلمات المفتاحية: الشعر العراقي المعاصر؛ الطفل؛ الحرب؛ قاسم سعودي.

Abstract

The child has a colorful presence in contemporary poetry as one of the main components of the social structure, and poets also paid attention to the subject of the child in their poetry due to their artistic beauty, visual dimensions, and innovative songs. They also portrayed the suffering of children in wars that were affected by their innocence and negatively affected their future lives and well-being.Qassem Saudi is an Iraqi poet who has written poems about the suffering of children in recent decades due to the wars that have taken place in Iraq. He left his literature and realistically paid attention to what happened to the children, including the loss of his family and the destruction of the land and the bloody events of the brutal times.

This research, which is based on an analytical-descriptive approach, explains the image of a war-torn child in the poem of Qassem of Saudi Arabia, and the results of the research show that orphanhood and loss, including the loss of the father, caused the child to live in poverty. He had to bear the burden of life alone, which led to his forced labor in the streets for a living. The children also enlisted in the army to defend their homeland, and their destiny was to fight and achieve martyrdom.

Key words: Contemporary Iraqi Poetry, Child, War, Saudi Qassem.

Résumé

L'enfant a une présence massive dans le poème arabe contemporain en tant qu'axe principal de la structure sociétale. Les poètes ont pris soin de la cause de l'enfant dans leurs poèmes en raison de l'esthétique artistique, de la dimension visionnaire et du chant créatif de l'enfant. Ils ont également dépeint la souffrance des enfants à la lumière des guerres qui ont altéré leur innocence et laissé des effets négatifs sur leur psyché et leur vie future. Parmi ces poètes se trouve Qasim Saudi, le poète irakien qui a écrit sur la souffrance et la tragédie des enfants à la lumière des guerres que l'Irak a menées ces dernières décennies. Par conséquent, la question de l'enfant est devenue sa préoccupation constante et l'idée de base pour laquelle il a consacré ses efforts. Cette recherche était basée sur la méthode descriptive-analytique pour expliquer l'image de l'enfant de la guerre dans la poésie de Qasim Saudi, qui a pu laisser son empreinte littéraire et décrire de manière réaliste ce à quoi les enfants étaient exposés dans son pays d'origine, y compris la perte de parents, la destruction de la terre et de la patrie, des événements sanglants et des massacres brutaux. L'une des conclusions de la recherche est que l'orphelinat et la perte, en particulier la perte du père et du soutien de famille, ont fait vivre l'enfant dans un état de pauvreté, de sorte qu'il a porté seul le fardeau de la vie sur ses épaules, ce qui a conduit à son emploi dans la rue pour gagner sa vie.

Mots-clés : poésie irakienne contemporaine; Enfant; la guerre; Qasim saoudien.

* Corresponding author, e-mail: alikhezri@pgu.ac.ir

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2022.

1. المقدّمه

واكبت الحرب حياة الناس منذ وجوده على الأرض، واختلفت أساليبها وتباينت صورها وتعددت اتجاهاتها، فتعد خسارة للمتحاربين لما تلحقه من دمار وخراب فلا ينجو راغب أو كاره لها، فهي مطحنة الرجال والعابثة في الحياة، ووصفها ابن عبد ربه (ت328.ه) بأن أولها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى. (كريمة، 2015: 153)

وقد لعبت الحرب دورا شعريا بارزا في الشعر المعاصر إذ أنها لم تظهر إلا في الدول التي عانت من الظلم والطغيان والإستبداد وعايشت التشرد والفقر والقتل والدمار والخوف مما تركت أثرا عميقا في الذات الشعرية وقد تجسد ذلك في قصائد حملت بين طياتها هموم الواقع وتصوير الإنكسارات النفسية والخيبات التي تعرض لها شرائح المجتمع المختلفة منها الأطفال.

إن الحروب وأحداث العنف التي مرّ بها العراق كانت لها أثرا عميقا في الشعر العراقي فعايش الشعراء الهم الوطني وأصبح قضيتهم الأولى ذلك أن الواقع الحياتي المعيش له انعكاسا كبيرا على أفكار الشاعر. ومن بين هؤلاء الشعراء قاسم سعودي الذي كتب عن معاناة شرائح المجتمع خاصة الأطفال بوصفهم الأكثر تعرضا للعنف فقد صوّر ما جرى لهم من طفولة مغتالة و حلم مفقود ولا غرابة فهو الشاعر الذي حمل همّ هذه الشريحة البريئة وقد نذر نفسه للكتابة عنهم والدفاع عن قضيتهم فجاءت صوره مليئة بالإحتجاج والإدانة للعنف الذي تعرض له الأطفال وبالكثير من الدلالات التي تشير إلى معاناتهم وقد أحسّ بظلالها الكئيبة على ذاته الشاعرة ناعيا حياة الطفولة التي مزّقتها الحروب والمآسي.

1 – 1 - أهميّة البحث وأهدافه

اليُتم والفقر وظهور الأطفال في الساحات والشوارع بصفتم متكدّين ومتسولين أثّرت على نفسيّة قاسم سعودي، وقد ظهرت صورة طفل الحرب بقوة في أشعاره، من هذا المنطلق تظهر أهميّة دراسة صورة طفل الحرب في شعر هذا الشاعر. عبّر الشاعر في شعره عن وطنه وشعبه الذي جرب شتى طرق العنف والظلم والدمار، والفقر والحرمان، والمعاناة اليومية. كل هذه الأمور جعلتنا نلتفت إلى شعره التفاتة خاصّة باحثين عن صورة طفل الحرب في أشعاره.

1 – 2- أسئلة البحث

إنّنا في هذا المقال نسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما الدوافع التي ساقت الشاعر إلى تصوير الطفل في أشعاره؟
- كيف تتجلّى صورة طفل الحرب في شعر قاسم سعودي؟

1-3- خلفيّة البحث

هناك دراسات تناولت موضوع الطفل؛ منها: مقالة «الطفل والطفولة في شعر السياب» (2011) لمحمد صالح رشيد ومنشورة في مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، في العدد الأول من المجلد الحادي عشر تطرق فيها الباحث إلى طفولة السياب ورمز الطفل والطفولة في شعره. ومقالة «الطفولة في شعر محمود الشلبي»(2914) لعماد عبد الوهاب الضمور التي نشرت في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والإجتماعية المجلد 41 ملحق 2. ومقالة «صورة الطفل في شعر عبد الناصر صالح» (2007) لمحمد دوابشة في

مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد العاشر، وقد تناول فيه الباحث الطفل الفلسطيني ونضاله. ورسالة ماجستير«صورة الطفل وأثرها في شعر أحمد دحبور» (2015) لميسون أحمد الشنباري بجامعة الأزهر (غزة) تحدثت فيها عن الطفل والدلالة الرمزية وأثر الطفل في البناء الدرامي للقصيدة والصورة الشعرية. ورسالة «صورة الطفل في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة (1980-2010)؛ دراسة نماذج» لزهرة غرناوط بجامعة أكلي مهند أولحاج في الجزائر وقد عالجت فيها الباحثة الطفولة في النص الأدبي وصورة الطفل في أدب الطفل وصورة الطفل في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة. وفي هذه الدراسات كلها هناك إشارة إلى العنف والظلم الذي جرى في حق الأطفال أما فيما يخص قاسم سعودي لم أعثر على دراسة في أشعاره ولم يتناول أحد منجزه الشعري بالبحث والدراسة فبحثنا هذا يتسم بالريادة.

1-4 - سيرة حياة الشاعر

قاسم سعودي شاعر عراقي؛ من مواليد بغداد في سنة 1969، وله المجاميع الشعرية: رئة ثالثة، مصباح مغلق، ما لم يره الراكض، كرسي العازف، حين رأيتك أخطأتُ في النحو. هو صاحب مشروع "تعال نكتب في بغداد" لتعليم طلاب المدارس الإبتدائية كتابة القصة القصيرة للطفل، وفازت مجموعته "كرسي العازف" بالمركز الثالث في جائزة أثير الشعرية في مسقط عام 2014م. حاصل الشاعر على المركز الثالث بجائزة الشارقة للإبداع العربي الدورة 12عام 2009 في أدب الطفل عن مجموعته القصصية للأطفال "حكايات الدرهم الذي كان يغني" والتي صدرت بطبعتها الرابعة عن دار الهدهد الإماراتية عام 2016م. (سعودي، 2016: 172).

2. صورة الطفل في الأدب العربي

يعتبر أدب الأطفال جزءا «من الأدب بشكل عام، يتخصص في مخاطبة فئة معينة من المجتمع وهي فئة «الأطفال» وقد يختلف أدب الأطفال عن أدب الكبار، تبعا لاختلاف العقول والإدراكات ولاختلاف الخبرات نوعا وكما. (يونسي، 1996: 32)

كانت صورة أدب الأطفال معروفة منذ القديم، تتلائم مع طبيعة العصر وثقافته وطبيعة المجتمعات، ومعتقداتها وأفكارها، إلا أنه بدأ تقريبا في الإنتشار مع نهاية الحرب العالمية الثانية لينتشر أكثر مع صدور إعلان حقوق الطفل عن الجمعية العامة للأمم المتحدة.

لقد تعددت تعريفات أدب الأطفال، فهناك من ينظر إليه باعتباره أدبا مستغلا له سماته المتميزة، وهناك من ينظر إليه باعتباره ضمن إطار الأدب بمفهومه العام، ولعل من أهم ما ورد في تعريفات أدب الأطفال نجد التعريف الذي يرى أن أدب الأطفال نوع من أنواع الأدب، سواء العام أو الخاص، فأدب الأطفال بمعناه العام يعني الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة لهؤلاء الأطفال في شتى فروع المعرفة. أما أدب الأطفال الخاص، فهو يعني الكلام الجيد، الذي يحدث في نفوس الأطفال متعة فنية، سواء كان شعرا أم نثرا وسواء كان شفويا بالكلام أو تحريرا بالكتابة.(نجيب، 1991: 44)

هناك من ينظر إلى أدب الأطفال على أنه إبداع مؤسس على خلق فني، يعتمد بنيانه اللغوي على ألفاظ سهلة ميسرة فصيحة، تتفق والقاموس اللغوي للطفل، بالإضافة إلى خيال شفاف غير مركب، ومضمون هادف ومتنوع وتوظيف كل تلك العناصر، بحيث تتفق أساليب مخاطبتها وتوجهاتها لخدمة عقلية الطفل و إدراكه كي يفهم الطفل

النص الأدبي ويحبه، ويتذوقه ومن ثمّ يكتشف بمخيلته آفاقه ونتائجه. (زلط، 1997: 22)

وقد قام الشاعر المعاصر بوصف مرحلة الطفولة على أنّها مرحلة أساسية لفهم المخزون الوجداني من ذاكرة الإنسان المعاصر التي تعكس تجربة حياتيّة من حضور الطفل في المجتمع. إن الأحداث التي شهدتها المُدن العربية في القرن العشرين من تهجير و فرار وصراعات متواصلة جعلت من الأطفال دُمية كئيبة تهرب من بلدةٍ إلى بلدةٍ علّها تحصل على بر الأمان و هذه الأحداث آلمت الشعراء كثيراً منهم قاسم سعودي.

3. ملامح صورة الطفل في شعر قاسم سعودي

إن "الكتابة للأطفال وكتابة الشعر على الأخص تأتي في الذروة، ذروة التعبير، ذروة الخبرة، ذروة النضج الفني، وليس من باب المصادفة أن كبار الأدباء في العالم اتجهوا إلى الطفولة وكتبوا لها، بعد أن تربعوا قمة المجد والشهرة وأعطوا معظم ما أعطوا للكبار، فالخبرة والنضج والتعبير سمات عامة للشاعر القادر على تمثل صورة الطفولة التي تتفق معظم الدراسات على تركيزها على القيمة الفنية والقيمة التربوية، لكن الكتابة الموجهة للأطفال في العراق ما بعد التغييرتجاوزت هاتين القيمتين، لتصل إلى تمثل موضوعة الوقوف بوجه العنف الذي تتعرض له الطفولة وصولا إلى جعلها موضوعا رثائيا تدور حوله مفاصل النص الشعري المعاصر إذ إن هذه هي التمثلات التي عبّرت عنها تضاريس العقلية الشعرية العراقية التي دافعت عن حق الطفولة التي سُلبت في العراق". (البركي، 2016: 84)

إن قاسم سعودي حاول أن يكون دقيقاً في وصف الطفل العراقي وهو يرزح تحت وطأة الحرب والقصف حتّى الشهادة وكأنه يتعمّد على ترتيب الأحداث التي يشهدها الطفل العراقي أثناء الحرب. يرسم الطفل من تحت الأنقاض قائلاً: «على جدار الغرفة أرسمُ سريراً/ على السرير امرأة/ على المرأة طفل يضحك/ على الطفل سقط الجدار» (سعودي، 2016: 100). ثمّ يحاول أن يرسم صورة نضالية للطفل بقوله: «السبورة التي تعلوها صورة الطاغية/ رسم الطفل عليها مقبرة/ فهرب/ التلاميذ من المدرسة» (نفس المصدر: 104). صوّر الشاعر إلتزام أطفال الحرب في مواجهة الطغاة حتّى أثناء الطفولة. ثمّ يرسم للقارئ صورة طفل جريح: «أنا ميت على صوتك/ أقصد/ أصوات الجنود السعداء/ بالطفل الجريح/ الذي عاد يلعب في الشارع» (نفس المصدر: 107). ومن خلال هذا المخزون الشعري يحاول هذا البحث تحليل النماذج التي تختصّ بيُتمِ أطفال الحرب، وفقرهم، والشهادة التي تأتيهم في عنفوان الطفولة، وصورة الأرامل وهن أطفال، وعمالة الأطفال لنبيّن ما كان ينوي الشاعر لبناء هذه الصور من طفل الحرب.

3 - 1. اليُتم

يحث الدين الإسلامي على رعاية اليتيم، وأوصى بكفالته، ومدِّ يد العون له، ومعاملته بالإحسان، بل وجعل هذا من أفضل الأعمال عند الله وأزكاها، وحذّر من إهانة اليتيم، والطمع بماله، والإساءة إليه، وجعلها من كبائر الذنوب، واعتنى الإسلام باليتيم عناية فائقة، فتم ذكره في القرآن الكريم ثلاثًا وعشرين مرّة قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ

شَاءاللّهُ لأعْنَتَكُمْ إنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة/220). يظهر الشاعر صورة للأطفال الذين تيتّموا في طفولتهم قائلاً:

«أنا أعيش في حي شعبي/ شعبي جداً/ الأشجار قليلة فيه/ والأطفال كثيرون/ حين ينزل المطر على البيوت النحيفة/ تسمع شغف الصغار مع الأمهات في الغرف/ وهم ينظرون لأبائهم المعلقين على الجدران/ لكن/ ثمة أشرطة سوداء/ أشرطة سوداء دائماً/ تصرخ بشدة في الصور» (سعودى، 2016م: 52)

تبدو لنا الصورة في هذه المقطوعة الشعرية أنّ مفردة "الشعبي" تتحكم على النصّ بأكمله والتي تدل على المناطق الفقيرة فالشاعر يعيش حالة من الفقد واليتم والحي الشعبي الذي يصوره لنا الشاعر فيه أطفال كثيرون لكنهم دون آباء حيث لم يبق منهم إلا صورا معلقة على جدران البيوت فهذا المشهد القاتم الذي يطغى عليه اللون الأسود يدل على حجم المأساة في جوف العوائل التي فقدت الأب والمعيل بسبب تهور الحكام الذين فرضوا الحرب على البلد وينهي الشاعر نصه بصرخة ليعلن موقفه من خلال الصورة بتمرده وانتفاضته على الظلم والطغيان.

وفي نصٍ آخر يظن الشاعر أنّ الشهداء يزورون أطفالهم كل ليلة:

«لاتغلقوا أبواب المنازل مبكراً/ بعض الجثث تزور أطفالها كل ليلة/ وبعضها يخجل من ذلك» (المصدر نفسه: 55)

نلمس خيوط الدلالة المأساوية في هذا النص فحاول الشاعر أن يعبّر عن اليُتم الذي يعاني منه الأطفال لأن الحنين يجعل الأطفال يخلقون قصصاً لرجوع روح والدهم عند الليل لكي لا يستوحشوا ولا يشعروا بفقده. ثمّ يحاول الشاعر أن يروي تضحيات الأب العراقي لأفراد العائلة وضياعه تُعَد كارثة في هذه الأجواء الخانقة التي سادت على العراق مطلع القرن العشرين؛ ففي قصيدة "جسر" يقول الشاعر:

«على قبر أبي/ ثمة جذع نحيف/ في المرة الأخيرة/ وضعناه على رؤوسنا/ وعندما وصلنا إلى الهاوية/ صار جسراً لنا/ أنا/ والأمهات المريضات/ والأيتام الذين يلعبون الكرة في الغرفة» (المصدر نفسه: 63)

يجسّد لنا الشاعر قبر يتعلّق بالوالد، ثمّ حاول أن يروي التضحية التي لطالما قام بها العنصر الأبوي ومناصرة العائلة عند الشدائد؛ هذه الدلالات التي عالجها الشاعر من خلال أشعاره لكي يروي لنا معاناة اليتيم وأحواله بدلالاتٍ تختصّ باليُتم منها الجوع و عدم الأمان والفقر.

3 - 2. الفقر

يعد الفقر مشكلة عالمية وظاهرة اجتماعية ذات امتدادات اقتصادية وانعكاسات سياسية وبيئية متعددة الأشكال والأبعاد وهي ظاهرة لا يخلو منها أي مجتمع من المجتمعات ولكن بدرجات مختلفة من التفاوت في الحجم والطبيعة والمصدر.(طعان، 2010: 29)

وقد شغلت مظاهر البؤس الإجتماعي أفكار الشاعر، فعمد إلى تصوير آلام الفقراء وما يجدون من شظف العيش وقسوة الحياة فنراه يصور آلام الأطفال والعوائل التي تعاني من الفقر المفرط، وفي قصيدة «ثوب العائلة» يرسم لوحة فنية رائعة لمواجهة قبح الفقر:

«أعرف عائلة لاتمتلك سوى ثوب واحد/ترتديه الأم إلى السوق/ يلبسه الأب في الذهاب إلى المسجد/ ويطير به أطفالهما الثلاثة إلى المدرسة/ ذات يوم مات الأب في الطريق/ فبقيت العائلة عارية في المنزل» (سعودي، 2016: 11).

في هذا النص حاول سعودي أن يصف الفقر في العائلة ثمّ يركز على عرى العائلة بعد موت الوالد، وأراد بهذا القول أنّ الوالد هو باب العيش وكسب الرضا للعائلة وبفقده تبقى العائلة لا معيل لها. الثوب في هذا النص هو الدال الأساسي للأمن، ومنه الأمن الإقتصادي لأن الإقتصاد أهم المحاور الإجتماعية في المجتمع المدني. ثمّ في قصيدة "دكان الحلاق" نقرأ:

«لم نملك نقوداً للحلاقة/ لذلك كان أبي يقص رؤوسنا بمهارة فاشلة/ ومع القليل من الدموع نرتدي ثياب العيد السابق» (سعودى، 2016م: 14)

عزف الشاعر على الوتر الحساس في هذا النص وهو العيد وفرحة العيد للأطفال. ينتظر الطفل طيل السنة لكي يحتفل بالعيد ثمّ يصف هذه العائلة بأنّ الفقر جعل من الأطفال يحتفلون بالحُزن. فتميّز النص بمفردتين عبّرتا عن هذا الألم، هما "فاشلة" و"الدموع" لأنّ الأطفال بمعرفتهم لفقر العائلة لم يطالبوا بشيء يجعل الوالد في مأزق. ثمّ الفقر جعل من هؤلاء الأطفال، أطفال حرب ذاهبين إلى الجبهات:

«ونرقص في الشارع/كأسعد أطفال في العالم/ وأسرع أولاد أيضاً/ ذهبوا إلى الحرب» (سعودى، 2016م: 14)

الأمن الإقتصادي وفشل العوائل في إرضاء رغبات أطفالهم تجعل من هؤلاء الأطفال أفراداً مستعدة للتضحية لكي يصل كل واحد منهم إلى غاياتهم الإقتصادية لهذا يساومون على خوض حربٍ من أجل المال؛ فالفقر جعل من هؤلاء الأطفال دُمية تُعرض في الحروب. ثمّ يصف الشاعر الحالة الممزرية التي يعيشها أطفال الشهداء عند فقدهم للأب ويتمهم:

«أبي كان باب البيت/ عندما ارتفع/ صرنا بلا باب/ والحُزن يدخل علينا من شقوق الملابس/ قال أولاد الشهيد/ وهم يغازلون صغيرات الجيران/ كخطوة أولى لترميم الباب» (سعودى، 2016م: 15)

الباب دلالة الأمن في هذا النص، ثم الإرتفاع هو الذي يدلُّ على إرتقاء الأب إلى مرحلة الشهادة ومن هنا يتحدث الشاعر عن عدم الأمان بجملة "صرنا بلا باب" ويروي الفقر من خلال دالة «الملابس» بقوله "الحُزن يدخل علينا من شقوق الملابس". فيصف موت الوالد بوصفٍ طفولي عندما يسأل الطفل أُمه أين ذهب أبي: تردّ عليه أُمه ارتفع إلى الله؛ لكي يصوّر تفاعل الأطفال عند فقد والدهم ثمّ يصف حالات الأطفال الذين لم يفهموا حجم اليُتم في نفس اللحظة لهذا فرحين بما آتاهم حالاً. ويصف نفسهُ مع الحي المجاور و هو الآخر الأجنبي:

«وأنا صغير/ كنا نلعب الكرة ضد فريق الحي المجاور/ كانوا يرتدون قمصاناً فضفاضة بيضاء/ أحذية رياضية فاخرة/ حتى جواربهم كانت موحدة وطويلة/ ونحن حفاة/ نلبس ثياب المدرسة التي تغسلها أمهاتنا كل يوم/ لأننا لانمتلك غيرها/ كانت المباراة طويلة وممتعة وقاسية/ ولم تنتهِ حتى الآن/ لن تنتهي المباراة...» (المصدر نفسه: 40)

حاول سعودي أن يجعل من الزمان مرحلة لبيان دلالاته التي ترتبط بالفقر في الزمان "منذ طفولة" الشاعر، ثمّ يجعل جبهتين جبهة الأنا و جبهة الآخر ثمّ يُقارن بين هؤلاء من خلال ملابسهم ويروي لنا بأن هو وجبهته "حفاة" لايملكون غير ملابس المدرسة التي يلبسونها في كل المناسبات وفي الأخير يرى أنّ هذه الصراعات من جميع الجوانب لم تتغيّر بل إختلفت الجبهات. أيضا في قصيدة "حفلة عرس..." يقول:

«في حفلة عرس جارنا بائع الخضراوات/ رأيت الكثير من الأطفال الذين ينتظرون/ ما أن وضعنا الطعام حتى هجموا/ ثمة طفل لم يتحرك من مكانه/ بينما أخذ صديقه يسابق الأصابع السريعة/ ليجلب له قطعة صغيرة من اللحم/ كان الطفل الجالس أعمى..» (سعودى، 2016م: 78).

دلالات كثيرة من الفقر والتضحية من خلال هذا النص والحبكة الأهم هي هجوم الأطفال الجياع على المائدة ثمّ يروي حنين الأطفال رغم معاناتهم وفقرهم وتضحيته لطفل آخر. هذا النص يحمل في طياته الفقر والحزن والتضحية وعبّر عن الفقر الهائل الذي حلّ بالعوائل وعن الأطفال الذين يبحثون عن لقمة عيش ليبقوا أحياء. ثمّ جسّد الفقر بعدم دراية الطفل بالفاكهة:

«مثل طفل يرى الموز لأول مرة في السوق/ ويسأل/ ما هذا المخلوق يا أمي؟ » (المصدر نفسه: 87)

من خلال عدم فهم ماهيّة الفاكهة بنى الشاعر صورةً من الفقر والمجاعة التي حلّت بالعراق منذ الإنحصار الأمريكي على الشعب العراقي أبان حكم حزب البعث حتّى الغزو الأمريكي في عام 2003م فهذه المرحلة مرحلة المعاناة اليومية وخوض مرحلة فقر ودمار.

3 – 3. الحرب والشهادة

الشهيد هو القصيدة العظيمة التي لم تكتب بعد، فهو عنوان وجود الحياة ورمز بطولة ونداء، لقد اختلف الشعراء في تقديم صورة الطفل الشهيد التي ترتبط بالشاعر، فلا عجب أن يكون الشاعر ضمير هذا الشعب، يرتبط به ويعبر عنه، وعن كل ما يدور حوله من قضايا تقلقه، لهذا تختلف الصورة الشعرية من شاعر لشاعر آخر، وذلك بمدى قرابة الشهيد للشاعر، فقد يكون الأخ، الإبن، الأب، الأم، الأهل، الصديق، وتعبيره عن فقيده بالعاطفة المشبوبة التي تجلب الحزن العميق والألم الحاد.(الشنباري، 2015: 75)

خاض الحزب البعثي حروب عدّة داخل وخارج العراق وفي الأخير أطاح به الغزو الأمريكي حيث تبيّن للنُقّاد والمحللين فيما بعد أن الغزو ليس للإطاحة بصدام بل لنهب الثروات والسيطرة على العراق «في الإجابة عن التساؤل حول ما هي الأهداف التي يمكن أن تكون أمريكا قد سعت إليها من وراء غزو العراق واحتلاله، واستبعدنا الأمور التي هنا كاتفاق على عدم صحتها مثل أسلحة الدمار الشامل وعلاقة النظام السابق بالقاعدة، فإنه ستبقى عندنا ثلاثة أهداف محتملة غير معلنة: هدف إستراتيجي بسبب موقع العراق، وهدف النفط والسيطرة عليه، والهدف الثالث هو حماية أم إسرائيل، تلك الأهداف غير المعلنة والمحتملة لغزو وإحتلال أمريكا للعراق» (برمي،2018: 152). جسّدَ قاسم سعودي في نصوصه موت الأطفال أثناء الحرب وسقوط الصواريخ الأمريكية على الشعب العراقي حيث أصبحت هذه الطفولة في الصور التالية:

يجسّد حال الأمهات اللواتي يفقدن الأطفال أثناء الحرب:

«خمسة أرغفة من الخبز/ تتفحصها الأم جيداً في كل مرة/ وتخطيء في الحساب/ كعادة الأمهات اللواتي فقدن أولادهن في الحرب/ توزع الخبز على المائدة/ يأكلها الصمت/ تدخل خمسة طيور/ كان أولادها يقدمون لها الطعام على الشرفة» (المصدر نفسه: 35)

ومن ميّزات قصائد هذا الشاعر خلق فضاءات متباينة مع الحضور والغياب فجسّد من خلال هذا النص الإبن الذي مات خلال القصف الأمريكي ولم تنس أمه بأنهُ في الغياب فعند احصاء أرغفة الخبز يحضر ابنها، هذا الموت الذي يعبّر عنه الشاعر ويرى حضوره في الشوارع العراقية بات يكثر كل يوم. ثمّ يروي للقاريء أن الكثير من الأصدقاء استشهدوا في الحروب:

«بمرور سنتين تحول التلفاز إلى دبابة كبيرة/ كبرنا جميعاً مع القذائف/ مات أبي... ماتت الحديقة/ ذهب نصف الأصدقاء إلى الله» (سعودي، 2016م: 48)

خلال سنتين من الحرب التي لم تنقطع يوماً حيث أصبحت حرب داخلية بين الأحزاب المتخاصمة وراحت ضحيتها أبناء الشعب العراقي ثمّ كل الإذاعات و كل الأخبار تروي أحداث هذا الحرب ويرى الشاعر أن التلفاز تغيّر إلى آلة حربية في البيت، ثمّ يقول:

«لا أستطيع صد القذائف عن مدينتي/ لا الفقر عن منزلي/ ولاحتى الإمساك بجثة طفل وحشرها في تابوت صغير» (سعودى، 2016م: 56)

الحرب الذي أنهك الجميع، ويعلن الشاعر استسلامه لأنه "لا يستطيع صد القذائف عن مدينته" وهذه الحروب جلبت الفقر والحرمان في الشارع العراقي وباتت المجازر تتكاثر في العراق الحديث لذا يتحدث عن مجازر أو مقابر جماعية حلّت في العراق. ثمّ يصف الطفل الذي مات بأحضان أُمه:

«مثل رصاصة في بندقية جندي طيب/ أو قُبلة من وراء الزجاج على رقبة امرأة عانس/ أو ضحكة طفل لا وجه له/ خرج هكذا من تحت ثياب أُمه/ بلا وجه/ ولارأس/ رأس يطير الآن خارج الكوكب» (المصدر نفسه: 58)

تجسّد الشاعر في هذا النص إغتيال طفلاً وقطع رأسه بطريقة بشعة وغير إنسانية أمّا قبل الخوض في تعريف طيران الطفل حاول أن يروي الأحداث اللطيفة التي كانت حول الطفل من قُبَل وحضور للأم التي هي دلالة الأمن والحنان، وفي قصيدة ألعاب خشبية نقرأ:

«لجارنا العجوز هواية نادرة/ سرقة التوابيت من المساجد/ ليصنع منها في الصباح بعض الألعاب الخشبية للأطفال/ مرة سرق تابوتاً صغيراً/ فأخذ الأطفال يبكون بحرقة/ دخل أحدهم إلى التابوت/ لكنه سرعان ماتحول إلى طفلين» (المصدر نفسه: 86)

في هذا النص يروي الشاعر أحداث متتالية من الفقر، وعدم الأمان، ووجود الحروب المتكاثرة على العراق وكأنه حاول أن يخلق ديستوبيا من خلال هذا النص والعجوز رمز السلطة الخبيثة التي سيطرت على المدينة وسرقة التوابيت أي سرقة مايمتلكه الشعب. فالشاعر في هذه المرحلة من شعره كثيراً ما تأثر بالحروب والإغتيالات والإنفجارات لكي تغلب رحى الحرب على باقي المحاور لفظاً ومعناً.

3 – 4 . البنات الأرامل

الرجال بموتهم يؤثّرون على الأطفال وظاهرة اليُتم و على النساء وظاهرة الأرملةفيبقين بلا معيل، ولكن الشاعر غيّر مفاهيم هذه المرحلة وظهر خلجات الأرامل التي تعيش مرحلة الطفولة لكي تظهر المدينة الفاسدة وبقوة من خلال تزويج الأطفال وقتل الأزواج الذين لايكبرون على العرائس إلا بضع أشهر؛ هذه مأساة متحولة في شعر قاسم سعودي. الحرب عادة تيتّم و ترمّل، هذا هو الشاعر يجسّد الأرملة التي تعشق صورة جندي كأنها تحنُّ إلى زوجها الذي استشهد:

«هل رأيتم تلك البنت التي تخطيء دائماً/ في اختيار ثيابها البسيطة/ البنت بائعة الخضراوات/ البنت التي لاتحب الجنة/ تزوجت اليوم صورة جندي/ سقطت من جيب عجوز في السوق» (سعودى، 2016م: 37)

في هذه المقطوعة يجسد لنا الفقر الذي ادى إلى ذهاب الفتاة إلى السوق الذي يعد في قصائد قاسم سعودي مركز الشر وعدم الأمان وبصفتها بائعة خضراوات أكثر المهن حقارةً حيث تعشق شهيداً أو بالواقع تعشق أحداً يموت قبل الزواج وكثيراً ما ترملت البنات في أول شهر من زواجها:

«صديقي الذي فرح كثيراً بعروسه ابنة بائع الخضراوات/ عاد إليها بعد ثلاثة أسابيع على شكل عظام سوداء/ زوجته الصغيرة أخذت تقفز في مكانها مثل يد مقطوعة/ الأم نامت على خشب النعش/ الأب يضرب على رأسه» (المصدر نفسه: 49).

يرسم لنا الشاعر لوحة مأساوية مليئة بالحزن التي توحي بفظاعة الحرب فالزوجة الصغيرة تتفاجأ بفقد زوجها الذي قتل بطريقة شنيعة حيث رجع لها على هيئة عظام سوداء ويطلق الشاعر من خلال هذا النص صرخة مدوية يندد بها الفعل الإجرامي الذي تعرض له أبناء الشعب العراقي.

3 – 5. عمالة الأطفال

تعد ظاهرة عمالة الأطفال واحدة من المشكلات الخطيرة التة تواجه المجتمعات الإنسانية في كثير من بلدان العالم وفي مقدمتها دول العالم الثالث التي برزت في معظمها ظاهرة عمالة الأطفال وتفاقمت بشكل غير عادي وبالذات منذ أواخر القرن المنصرم تقريبا، لتصل إلى درجة يمكن القول أنها باتت تمثل مصدر قلق وتحدٍ كبير بالنسبة للأنظمة والحكومات في هذه الدول، إضافة إلى العديد من الهيئات والمنظمات الدولية المعنية التي أخذت تولي اهتماما كبيرا وعمدت إلى تبني أنشطة وسياسات وبرامج عما تهدف من خلالها إلى مساعدة العديد من الدول والمجتمعات على إيجاد الحلول والمعالجات التي من شأنها الحد من ظاهرة عمالة الأطفال. (كاظم، 2011: 155)

لم تغب هذه الظاهرة السلبية عن أنظار الشاعر فتحدث عنها ليصور لنا الطفولة المعذبة ومعاناة الأطفال ويشرح لنا عن آثارها النفسية التي أظلت بظلالها الكئيبة على الأطفال ليعلن لنا حجم المأساة والألم وقسوة الحياة التي يعيشها الطفل:

«رغم نحافته الهائلة/ كانت الأرض تخجل منه/ وهو يدفع عربة الحلوى/ لكنه لم يبع اليوم سوى قطعة واحدة بالمجان/ لطفل وحيد عبر الشارع عند الغروب/ الطفل أنا/ وأبي بائع الحلوى...» (سعودي، 2016م: 41).

فی هذه المقطوعة ترتسم لنا صورة الفقر والحرمان الذي جعل الأطفال يتركون المدارس ذاهبين إلى الحصول على لقمة عيش؛ يجسّد قاسم سعودي في هذا النص أنّ طفلاً نحيفاً لايقوى على دفع عربة الحلوى، فيرسم من خلال المشهد تصويراً حزيناً من طفل الحرب الذي يعمل في الشوارع التي لا أمن فيها ولا أمان ومع ذلك كان رقيق القلب يحمل في خلجاته حباً لأطفال وطنه أكثر من غيره. ثمّ يندب الله ويتسائل كم من طفل تحت القصف مات:

«الطفل الذي وجدنا بالصدفة نقش النبوة على ظهره/ يا الله.../ كم من الأنبياء الصغار الآن/ في الأسواق وإشارات المرور وتحت قصف الطائرات» (سعودي، 2016م: 95)

ويروي الأطفال الذين يسكنون الشوارع ويعيشون حالة اللاأمن وحياتهم تحت القصف. فالشاعر وكأنه يصوّر معاناة الأطفال الذين يسكنون الشوارع للحصول على لقمة عيش وقليلاً ما عالج أمر هذه الأطفال في الشعر الحديث أو غالباً يروي الروائي هذه الأحداث من خلال رواياته، ومن هذا المنطلق يبدع الشاعر في تصوير هذه المعاناة في شعره.

3 – 6. حزن أطفال الحرب

لقد عاش الشاعر المعاصر دائم الإحتكاك بواقعه ولم يعش في نعومة ونعيم، بل إنه عاش ولا يزال يعيش بين نار ذاته وطاعون واقعه. ولنا الحق في القول إن هذا الشاعر مثّل الواقعية الجديدة أصدق تمثيل. إذ التحمت في شعره مشاكل واقعية مع الوجدان. فالحزن الذي أصاب الشاعر المعاصر لم يأت من العدم، وإنما عندما أراد الشاعر أن يكون مخلصا لذاته ويمنحها ما أرادت من حقوقها عليه، اصطدم بالواقع وبالنظام الخارجي. من هنا نقول أن الواقع وظروفه المؤلمة هي التي تسببت في حزن الشاعر العميق والصّادق. (موس، 2016: 94)

ويرى عز الدين إسماعيل: "أنّ نزعة الحزن في شعرنا المعاصر قد أضافت إلى التجربة الشعرية بعامة آفاقا جديدة زادتها ثراء وخصبا...، وولّدت طاقات تعبيرية لها أصالتها وقيمتها". (إسماعيل، 1978: 372)

إن القارئ عندما يلج ديوان الشاعر، يراه مسكونا بالأحزان والهموم ففي قصيدة "الحافلة" يجسد لنا حزنه الكبير الذي يغلف قلبه بالسواد؛ فيقول:

«في الطريق إلى المقبر ة/ جلست قربي طفلة صغيرة في حضن جدتها/ تحدثنا كثيراً عن الحرب/ عن النساء الوحيدات وجثث الجنود التي لم تدفن بعد/ وعن العصافير التي تطير قرب نافذة الباص وتبكي/ عندما وصلنا/ صارت الطفلة عجوزاً» (سعودي، 2016م: 77)

في هذا النص جسّد الشاعر رحلة من الدنيا نحو المقبرة، وليرسم لنا مدى هول المصيبة التي حلّت بهم يقوم بوصف أحوال الطفلة التي قامت تتحدث عن الحرب وعن النساء الوحيدات وجثث الجنود التي لم تدفن بعد ومع كل هذا طفلة بهذا العمر بعيد كل البُعد هذا الكلام وفي هذه الأثناء تشيخ الطفلة بحديثهما عن الحرب إثر المصائب التي تهاوت عليهم وكل ذلك ليبيّن مدى المصائب التي جرت على الأطفال أثناء الحرب.

وفي قصيدة زجاج أخي يرسم لنا الشاعر صورة تصل لحد الغرابة وتثير الدهشة لدى القارئ:

«أخي طفل من زجاج/ تخاف عليه أمي كثيرًا/ لا يلهو عادة على ظهر أبي/ عندما نتشاجر مع أولاد الجيران نجعلُه خلفنا/ نحرسُه حين نركض/ وعندما ينام/ نخاف أن ينقلب فتحزن أمي/ لا يأكا شيئا سوى ضحكاتنا/ ونحن نسرق الطعام الذي لم ينضج بعد من المطبخ/ يبرقُ طوال اليوم/ لذلك عشقته صغيرات الجيران سريعا/ لم يذهب إلى المدرسة/ مخافة أن يرميه الأطفال بالحجر/ لا يحب الثياب كثيرا/ فيخرج عاريا إلى الشارع/ أخي الذي من زجاج/ شاهد جنازة شهيد فانكسر..» (نفسه: 13)

يأتي الشاعر بصورة مبدعة ومبتكرة في تصوير براءة الطفل فيشبه بالزجلج لما يمتلكه من شخصية حساسة التي تتأثر بسرعة فالأهل يخافون عله أن ينكسر فيولون عنايتهم لكن الحرب لا ترحم فقد أصيب بتداعيات نفسية وكساه الحزن الكئيب إثر مشاهدته الجنازة، ذلك المشهد الذي اعتاد الشعب العراقي أن يراه يوميا على مسرح الوطن فالقتل والدمار يشكل تأثيرا سلبيا وضغطا نفسيا على الأطفال الذين تجرّعوا مرارة الحزن والألم فالشاعر لا يؤلف المعاناة فقط بل يعيش كينوناتها بأدق تفاصيلها وقد ركز على انكسارات الأطفال النفسية جاعلا القارئ يشاركه تلك الدرما الحزينة.

النتيجة

في نهاية المطاف توصلنا إلى هذه لنتائج:

- أحداث العراق المعاصر والتقلبات التي شهدها الطفل العراقي جعلت قاسم سعودي يتألم ويعيش حالة من الأسى والحزن إزاء هذا الكم الهائل من العذاب الذي يتحملهُ الطفل العراقي - وقد تركت الأطفال بصمة في مجاميع هذا الشاعر وعبّر عن تحولات الطفل ووظفه توظيفاً تراجيدياً مستلهما الحياة الواقعية التي عاشها هؤلاء الأطفال ومن بين هذه الأشياء صور الطفولة التي أخرجها من دائرتها الضيقة الوصفية إلى عالم الحياة الإنسانية.
- وصف الشاعر يُتم أطفال الحرب، وفقرهم، والشهادة التي تأتيهم في مرحلة حساسة من عمرهم ألا وهي الطفولة، وصورة الأرامل وهن أطفال لا تتجاوز أعمارهن الخمسة عشر، والأطفال التي تولد يتيماً، وأطفال الشوارع الذين يبحثون عن لقمة عيش و الحزن الذي يتقلّب بأفئدتهم.
- اعتمد الشاعر في بناء قصائده على الدراما، فقد حاول أن يجسد طبيعة الصراع في الواقع العراقي بأشكاله وأنماطه ليكون صادقا في تعابيره وأفكاره ومضامينه.
- أبدع سعودي في التقاط صورة من واقع الحياة العامة، بل ومن واقعه بصورة خاصة، من خلال التركيز على جوانب الصورة بألفاظها وتراكيبها من خلال رؤيته الشعرية وتجربته الخاصة.

المصادر

القرآن الكريم

-الشنباري، ميسون أحمد، (2015)، «**صورة الطفل وأثرها في شعر أحمد دحبور**»، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، غزة.

- البركي، علي حسين انشينش، (2016)، «**تمثلات العنف في شعر التفعيلة العراقي المعاصر (2003-2014)**»، رسالة ماجستير، جامعة المثنى، العراق.

- إسماعيل، عز الدين، (1978)، «**الشعر العربي المعاصر؛ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**»، بيروت، دار الثقافة، ط 3.

- زارع برمی، مرتضی. (2018م). «**ترسبات الغزو الأمريكي للعراق 2003م في الشعر العراقي الجديد: بشرى البستاني نموذجاً**». إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، السنة الثامنة- العدد التاسع والعشرون- ربيع 1397ش/ آذار 2018م،

-زلط، أحمد، (1997) «**أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه**»، القاهرة، الشركة العربية للنشر والتوزيع.

- سعودي، قاسم. (2016). «**الصعود على ظهر أبي**». الشارقة: الإمارات العربية المتحدة، العنوان للنشر والتوزيع.

- طعان، صادق علي، (2010)، «**الفقر الإقتصادي والفقر المعرفي؛ مقاربة اقتصادية**»، مجلة الغري للعلوم الإقتصادية والإدارية، المجلد الخامس، العدد السادس عشر.

- كاظم، سميرة عبد الحسين، (2011)، «**عمالة الأطفال في العراق "الأسباب والحلول"**»، مجلة البحوث التربوية والنفسية، جامعة بغداد، المجلد الثامن، العدد الثلاثون.

- كريمة، شرفي، (2015)، «**الرفض في شعر بشرى البستاني؛ دراسة نفسية**»، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر.

- موس، نجية، (2016)، «**ظاهرة الحزن وبواعثها في الشعر العربي المعاصر**»، مجلة جسور المعرفة للتعليمية والدراسات اللغوية والأدبية، الجزائر، المجلد الثاني، العدد السابع.

- ناظميان، هومن. (2019م). «**الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق**»، المؤتمر الدولي الثامن للغة العربية، 11-13أبريل 2019م، الموافق 6-8 شعبان 1440ق صص160- 167

-نجيب، أحمد، (1991)، «**أدب الأطفال علم وفن**»، الفكر العربي للنشر.

-يونسي، عبد الحميد، (1996)، «**الأسس الفنية لنقد الأدبي**»، القاهرة.